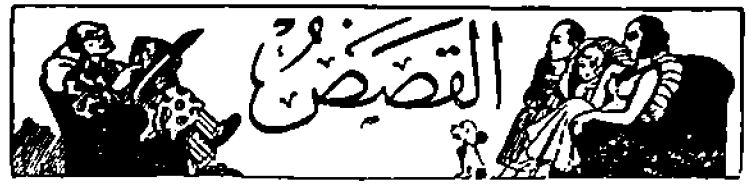

بين المقابر

للقصصي الروسي تشيكوف

بقلم الأستاذ حسين أحمد أمين

— « الريح تعصف ، والظلام يزحف علينا .. أليس من الأفضل أن نعود ؟ »

كانت العاصفة تنساب بين الأشجار الطويلة القديمة عابثة بأوراقها الصفراء الذاوية ؛ وكان البرد يتساقط بغزارة على جماعتنا .. فإذا بواحد منا يزلق على الأرض الموحلة فيمسك بصليب كبير يمنعه من السقوط ..

وبدأ الرجل يقرأ ما كتب على الصليب : « إيجور جريا سنوراكوف .. فارس ومستشار خاص .. إنني أعرف هذا الرجل .. لقد كان يحب زوجته .. ولم يقرأ في حياته كتابا واحدا .. وكان حسن الهضم .. وحياته جديرة بأن تعاش .. إنه لم يكن في حاجة إلى أن يموت .. غير أنه — ويا للأسف — مات ضحية لمبقريته وحبه للملاحظة والمراقبة ؛ فبينما كان ينصت من ثقب الباب ذات مرة إذا برأسه يصطدم بالباب صدمة عنيفة مات بسببها .. فتحت هذا الصليب يرقد رجل كان يكره الشعر منذ أن كان في المهد ..

أرى شخصا قادما نحونا .. »

وتقدم منا رجل حليق الوجه في معطف قديم وتحت إبطه زجاجة من الفودكا وفي جيبه ربطة من السجق

وسألنا في صوت أجش: « أين قبر موشكين ، الممثل ؟»

وقدناه إلى القبر وكان موشكين قد مات منذ عامين ..

وسألناه : هل أنت موظف حكومي ؟ »

— « كلا .. إنني ممثل .. وإنه لمن الصعب في أيامنا هذه أن تميز الممثل من الموظف الحكومي .. هذا شيء غريب وهو بلا شك لا يشرف الموظفين .. »

وهو متشبع بالأبحاث الحديثة لا يؤثر عليها قيوداً ، وما زال يداورنا فتزمت ونقف في طريقه فينساب ، ولكنه أحدث في جمودنا ثقوبا شمت منها أضواء بعد أن جعلناه يلتفت شيئاً ما إلى الوراء . ثم دارت الأيام ونفذ أستاذنا إلى خفايا الكتب العربية ليعيد فيها النظر على أضواء خبرته ودراسته ، وبدأت جهوده التوالية المباركة تؤتي ثمارها كتباً قيمة ومحاضرات ناضجة بنيت على أحدث النظريات مدعمة بكثير من أقوال العلماء السابقين

إن فصول الكتاب وأبوابه ، وطريقة عرض الأفكار وتسلسلها ، تعجب القارئ وتمتعه ويلذ له ما فيها حتى لو كان بعض [1] ما فيها من استنتاج مبني على افتراض يخالف بعض ما اطمأن إليه القارئ من الآراء ، وقد يدعوه بقوة حجته إلى التأمل فيما قرأ من كتب أو كون من معلومات. كما نبدو للقارئ ظاهرة أخرى قوية ، تلك هي الاستنتاج المبني على الإحصاء الدقيق الذي يدل على تعمق في البحث واستيعاب لما يريد أن يخوض فيه من حديث ، وكل ذلك في أسلوب خلا من التكلف والغموض

ولا يكون هذا الإيضاح وتلك العذوبة إلا بعد هضم للمعلومات ووضوح الغرض في النفس وتميز الغاية التي يهدف إليها الكاتب المبين

وكنت أحب أن أنقل بعض فقرات من الكتاب لولا أنني وجدت كل ما فيه متخير ، وأنه — كما يقولون — آخذ بعضه بحجز بعض ، احتوى على طرائف من دراسة البلاغة التي امتزجت بدراسة مفردات اللغة ولهجاتها ، ونحوها وصرفها ، وأدبها من شعر ونثر مع مقارنة باللغات الأخرى ولهجاتها ، متوجاً ذلك كله باستعراض أساليب القرآن المختلفة التي توضح أفكاره وترجحها

لهذا كان على كل أديب ولغوي وباحث أن يقرأ الكتاب ، وسيجد فيه مصداق ما أقول. ولقد أبدع أستاذنا فيما كتب وأحسن فيما ألف فله تهنئتي وتقديري ، راجياً أن يواصل الجهد ويوالي الإنتاج لينفع إخوانه وتلاميذه وليبعث في أولئك القاعدين والخاملين النشاط والحياة. والله يتولى العاملين

عبد الستار أحمد فراج

المحرر بالمجمع اللغوي

(١) أنظر الفصل الخامس « قصة الإعراب »